(١) أول خطبة للنبى ﷺ بالمدينة

قال ابن هشام فى سيرته : كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« **أما بعد، أيها الناس .. فقدِّموا لأنفسكم، تعلَمُنَّ والله ليُصعقَنَّ أحدكم ثم لَيَدَعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ ، ثم ليقولنَّ له ربه وليسَ له ترجمان[1] ولا حاجبٌ يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلَّغك؟ وآتيتك مالاً وأفضلتُ عليك ، فما قدَّمتَ لنفسك؟ فلينظرنَّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرنَّ قدّامه فلا يَرى غيرَ جَهنَّم .**

فمن استطاع أن يَقِىَ وجهه من النار ولو بشِقِّ من تمرة فليفعلْ ، ومن لم يجدْ فبكلمة طيبة ، فإن بها تُجزى الحسنةُ عَشْرَ أمثالها إلى سَبعمائة ضعف .

والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

(سيرة ابن هشام ١ / ٣٠٠ ، وأخرجها أيضاً البيهقى)

---

(١) الترجمان - بضمتين أو فتحتين بينهما سكون ، وبفتح فسكون فضم - أى : المفسر .

فى هذه الخطبة الأولى ـ كما قرأنا[1] ـ أراد النبى ﷺ بما أوتى من جوامع الكلم وفصل الخطاب : أن يذكّر أصحابه الفضلاء ، وأن يذكّرنا نحن كذلك من خلالهم : بأن الحياة الدنيا لا دوام لها ، وأن الإنسان فيها مثله كمثل الضيف الذى لابد وأن يرحل مهما طالت إقامته فى هذه الحياة الأولى :

العُمْرُ مثلُ الضَّيفِ أو ... كالطَّيفِ ليسَ له إقامَةْ
وأخو الحجَا فى سائرِ ... الأحوالِ مرتقبٌ حِمَامَه(٢)
والجَاهلُ المُغْتَرُّ مَنْ ... لم يجعلِ التَّقْوَى اغتنامَه

كما يذكّرهم النبى ﷺ بأن الإنسان عندما سينتهى أجله سيترك كل شىء خلفه ، وأنه لن يأخذ معه إلى العالم الآخر إلا ما قدَّمه من أعمال ـ صالحة أو طالحة ـ وأنه هناك عندما سيواجهه الله تعالى بكل تلك الحقائق مذكّراً إياه بما تفضَّل عليه سبحانه وتعالى به : سينظر الإنسان هذا يميناً ويساراً علَّه يرى خيراً قدَّمه . . فإذا لم يجد الخير هذا فإنه لن يرى غير الشر الذى به سيكون من أهل النار .

ولهذا : فإن النبى ﷺ يدعونا جميعاً فى نهاية هذه الخطبة إلى أن نسارع إلى الله تبارك وتعالى بخالص الأعمال قبل أن ننتقل من دار العمل إلى دار الحساب ، وقبل أن نندم . . «ولاتَ ساعةَ مَنْدَمِ » . .

---

(١) أو كما سمعنا ـ إن كان هذا سيلقى على المنبر .
(٢) الحمام ـ بكسر الحاء ـ : هو الموت .

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾(١) .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) .

ولله دَرُّ القائل :

قَدِّمْ لِنَفْسِكَ خَيْراً ... وأنتَ مَالُكَ مَالُكْ
مِنْ قَبْلِ تُصْبِحَ فَرْداً ... ولونُ حَالِكَ حَالُكْ
ولَسْتَ والله تَدْرِى ... أىَّ المَسَالِكِ سَالُكْ
إمَّا لِجَنَّةِ عَدْنٍ ... أو فِى المَهَالِكِ هَالُكْ

فلنذكر جميعاً كل هذا، ولنعد سريعاً إلى الله تعالى، قبل انتهاء آجالنا ، وقبل أن يقول كل واحد منا عندما سينتهى أجله :

﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣) .

* * *

(١) سورة النبأ : ٤٠ .
(٢) سورة المطففين : ٦ .
(٣) سورة المنافقون : ١٠ ، ١١ .